خصائص شعر الفتوح من خلال نماذج شعرية :

يقول قول خليد بن المنذر في يوم طاوس [1]:

بِطَاوُوسَ نَاهَبْنَا المُلُوكَ وَخَيْلُنَا	عَشِيَّةَ شَهَرَاكَ، عَلَونَ الرَّوَاسِيَا
أَطَاحَتْ جُمُوعَ الفُرْسِ مِنَ رَأْسِ حَالِقٍ	تَرَاهُ لِبَوَّارِ السَّحَابِ مُنَاغِيَا
فَلَا يَبْعَدَنَّ اللهُ قَوَمًا تَتَابَعُوا،	فَقَدْ خَضَّبُوا يَومَ اللِّقَاءْ العَوَالِيَا

يقول عاصم بن عمرو يوم المقْرِ [2]:

أَلَمْ تَرَنَا غَدَاةَ المقْرِ فِئْنَا	بِأَنْهَارٍ وَسَاكِنِها جَهَارَا
قَتَلْنَاهُمْ بِهَا ثُمَّ انْكَفَأْنَا	إلى فَمِ الفُرَاتِ بِمَا اسْتَجَارَا
لَقِينَا مِنْ بَنِي الأَحْرَارِ فِيهَا	فَوَارِسَ مَا يُرِيدُونَ الفِرَارَا

يقول قاله أبو عامر بن غيلان في ولده، الذي خرج غازيًا وأدركه طاعون عمواس فمات فيه [3]:

عَيْنِي جُودِي دَمْعَكِ الهَتّضانِ	سَحًّا وابْكِي فَارِسَ الفُرْسَانِ
يَا عَامِرُ مَنْ لِلْخَيْلِ لَمَّا أَحْجَمَتْ	عَنْ شِدَّةٍ مَرْهُوبَةٍ وَطِعَانِ
لَوْ أَسْتَطِيعُ جَعَلْتُ مِنِّي عَامِرًا	بَيْنِ اللَّهَاةِ وَبَيْنَ عَقْدِ لِسَانِي
ولَوْ أَسْتَطِيعُ جَعَلْتُ مِنِّي عَامِرًا	تَحْتَ الظُّلُوعِ وَكُلُّ حَيٍّ فَانِ
يَا عَيْنِي فَابْكِي ذَا الحَزَامَةِ عَامِرًا	لِلْخَيلِ يَومَ تَوَاقِفٍ وَطِعَانِ

يقول مالك بن الريب المشهورة الطويلة [4]:

أَلَمْ تَرَنِي بِعتُ الضّلالةَ بالهُدَى	وَأَصْبَحْتُ في جيشِ ابْنِ عَفَّانَ غَازِيَا
لَعَمْرِي لَئِنْ غَالتْ خُراسَانُ هَامَتِي	لَقَدْ كُنْتُ عَنْ بَابَيْ خَرَاسَانَ نَائِيَا
تَذَكَّرْتُ مَنْ يَبْكِي عَلَيَّ، فَلَمْ أَجِدْ	سِوَى السَيْفِ والرّمحِ الرُّدَيْنِيِّ بَاكِيَا
وَأَشْقَرَ خِنْذِيذٍ يَجُرّ عِنَانَهُ	إلى الماءِ، لَمْ يَتْرُكْ لَهُ الدَّهْرُ سَاقِيَا
ولَكِنْ بِأَطْرَافِ السُّمَيْنَة نِسْوَةٌ،	عَزِيزٌ عَلَيْهِنَّ، العَشِيَّةَ، مَا بِيَا

---

[1] – أبو عبد الله ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج04، دار صادر، بيروت، لبنان، ط02، 1995، ص 08.

[2] – المصدر السابق، ج05، ص175.

[3] – أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (ابن عساكر)، تاريخ دمشق، ج26، تح: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1995، ص 87- 88.

[4] – أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي ، جمهرة أشعار العرب، تح: علي محمد البجادي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 1981، ص 608- 610.

صَرِيعٌ على أيْدِي الرّجَالِ بِقَفْرَةٍ	يُسَوَّوْنَ قَبْرِي، حَيْثُ حُمَّ قَضَائِيَا
وَلَمّا تَرَاءَتْ عِنْدَ مَرْوٍ مَنِيَّتِي،	وَحَلَّ بِهَا جِسْمي، وَحَانَتْ وَفَاتِيا
أَقُولُ لأصْحَابِي ارْفَعُونِي لأنَّنِي	يَقِرّ بِعَيْنِي أنْ سهَيلٌ بَدَا لِيا
فَيَا صَاحِبَيَ رَحْلِي! دَنَا المَوْتُ، فَأنْزِلَا	بِرابِيَةٍ، إنِّي مُقِيمٌ لَيالِيا
أَقِيمَا عَلَيَّ اليَوْمَ، أَوْ بَعْضَ لَيْلَةٍ،	وَلَا تُعْجِلَانِي قَدْ تَبَيَّنَ مَا بِيَا
وَقُومَا، إذَا مَا اسْتُلَّ رُوحِي، فَهَيِّئَا	لِيَ القَبْرَ والأكْفَانَ، ثُمّ ابْكِيَا لِيَا
وَخُطَّا بِأَطْرَافِ الأسِنَّةِ مَضْجَعِي	وَرُدَّا عَلَى عَيْنَيَّ فَضْلَ رِدَائِيَا

يقول ضرار بن الأزور في فتح دمشق، وقد فدى خالدا بنفسه [1] :

عَلَيْكَ رَبِّي فِي الأُمُورِ المتَّكَلْ	اغْفِرُ ذُنُوبِي أَنْ دَنَا مِنِّي الأجَلْ
يَارَبِّ وَفِّقْنِي إِلَى خَيْرِ العَمَلْ	وَعَنِّي امْحُ سَيِّدِي كُلَّ الزَّلَلْ
أَقْمَعُ بِسَيْفِي الرَّومَ حَتَّى يَضْمَحِلْ	مَالِي سِوَاكَ فِي الأُمُورِ مِنْ أَمَلْ

1/ القصر والإيجاز :

يسود في شعر الفتوحات الإيجاز والاختصار، بحيث تندر فيه القصائد المسهبة والمطولة، فهو بهذا « شعر اللمحات السريعة، والمواقف الخاطفة، وجمهوره لذلك مقطوعات قصيرة، يجري فيها الشاعر على سجيته دون تدقيق في المعنى، أو تنقيح للفظ، أو التماس وزن أو قافية » [2]، وهو في الغالب يأتي على غرض واحدٍ.

2/ العفوية والبساطة :

ولعل هذه الخصيصة لها علاقة بما سبقتها، فما دام شعر الفتوحات يجري على سجية صاحبه، فهو وليد الحالة الشعورية التي يعيشها، فلا يخضع لتنقيح ولا لتمحيص ولا لإجالة فكر، ولهذا يأتي على شكل مقطعات سريعة يقولها الشاعر بكل عفوية وبساطة فلا تكلف ولا تمحل فيها، والسبب يرجع إلى – في الغالب – إلى « شواغل الجهاد التي تحول بينه وبين إطالة الفكرة، كما تحول بينه وبين المعاودة للفظ، وتجويده وتحبيره » [3]، هذا من جهة ومن جهة ثانية أن الإسلام يدعو إلى البساطة والتلقائية والبعد عن التصنع والتكلف والتشدق والتقعير، ولكنه مع هذا فهو لا يخلو من صدق العاطفة وحرارتها.

3/ كثرة شعر الرجز :

وقولنا هذا لا يعني أن الرجز ظغى على الأوزان الأخرى، وإنما كان له حضورا واضحا بوصفه شكلا يختلف عن القوالب الشعرية الأخرى، من حيث اعتباره نوعا مستقلا من أنواع التعبير الأخرى، ومن حيث اقتصاره على

---

[1] – أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي، فتوح الشام، ج02، مصدر سبق ذكره، ص 222.

[2] – شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي (العصر الإسلامي)، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط20، 2002، ص67.

[3] – الصفحة نفسها.

موضوعات بعينها، « فضلًا عن تميزه بدور كبير في ظروف القتال، لم يتسن للشعر، في التحميس ورفع روح المحاربين، إلى جانب أن الرجز لسهولته وقربه من السليقة العربية كان سبيل الشعراء المغمورين، الذين أنطقتهم الفتوح، وهم كثرة كثيرة، بينما كان شعر القصيد سبيل الممتازين من الشعراء، وإن كان لم يحتفظ بخصائص الشعر العربي التقليدية، فأضحى مقطعات قصيرة قليلة عدد الأبيات » [1]

4/ التخفف من المقدمات الطللية والغزلية :

كما يلاحظ أن القصائد الفتحية قد خالفت القصيدة التقليدية المركبة من حيث هيكلتها وشكلها المعروف؛ حيث تبدأ بذكر الأطلال، ثم تنتقل إلى الغزل وذكر النساء، ووصف رحلته، وما يكون فيها، وما يتبع ذلك من الإحاطة بناقته – وسيلته في السفر – حتى يصل إلى الغرض المراد كالمديح وغيره، كما قرره ابن قتيبة في مقدمة كتابه الشعر والشعراء، فالكثير منها قد طرحت هذا النظام الصارم، الذي لا يسع أحد الخروج عليه، ولعل هذا الثورة – إن صح التعبير – تتلاءم مع الظروف المحيطة بالشاعر الفاتح / المحارب، الذي لا يسعه وهو في ما هو فيه من قتال وكرٍّ وفرٍّ ورباط أن يلتزم بقانونٍ متكلفٍ، لا يتوافق مع واقعه المعيش، بل ويخالف مشاعره التي يحياها بين الحياة والموت، فلم يكن له من داع كي يجعل بينه وبين ما يريد من معنى أو غرض هذه الحواجز المتوالية، وتلك المراحل المتدرجة، « ولهذا فلن نجد بين شعر الفتح كله قصيدة واحدة، تزيد أبياتها عن عشرة أبيات، ولن نجد قصيدة تشتمل على أكثر من غرض واحد إلا فيما ندر، فكل مقطوعة تستقل بموضوع واحد يعبر عنه الشاعر هذا التعبير المندفع السريع » [2]

5/ صدور الشعر عن روح إسلامية :

مما لا شك فيه أن شعر الفتح ما دام متعلقا بفكرة الجهاد فإنه « يكشف في جلاء عن أثر الإسلام كعقيدة، وكفكرة في نفسية العربي، وفي حمله على أن يبذل وأن يضحي في سبيلها بكل ما يملك، من روحه وجهاده ونضاله، كما يظهر في شعر الجهاد وأرجاز الفرسان، ويصور شعر الفتوح بالتالي مدى التغيير الهائل الذي أحدثته الفكرة الإسلامية في الارتقاء بالنوازع الوجدانية والقبلية والفردية الضيقة الحدود إلى وجدان متوحد » [3]، يقتسم فيه الفارس أو المجاهد آلامه وآماله مع رفقاء الدرب، في ظل الوجدان الجاعي ، والمصير المشترك، والغاية الواحدة، ولهذا ارتسمت في شعرهم لوحات إيمانية سامية ملؤها الإيمان العميق، والثقة بموعود الله، والاطمئنان إلى قضائه، واليقين بنصره، وهو زيادة على هذا يعدُّ شعرا ملتزما يرمي فيه صاحبه إلى حفظ تماسك الوحدة الإسلامية، والدفاع عن بيضة المسلمين وتبليغ الحق والهدى إلى الناس، فهو بهذا ليس كالشعر الجاهلي الذي يكون خدمة للقبيلة، وتحريك النعرات القومية، وإشعال نار صوت الفخر القبلي، أو مصدر لهو وتفكه وطرب.

---

[1] – النعمان عبد المتعال القاضي، شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص 220.

[2] – المرجع نفسه، ص 222.

[3] – المرجع نفسه، ص 281.